شــرح:

كتاب الكبائر

لِمُؤَلِّفِهِ الْإِمَامِ:

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ الذَّهَبِيُّ

لِفَضِيْلَةِ الشَّيْخِ

أ.د: سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

المجلس (٢٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْسَّـلَامُ عَلَـيْكُمْ وَرَحْمَـةُ الله وَبَرَكَاتُـهُ، الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام الأتمـان، الأكملان، علىٰ المبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله، وصحبه أجمعين، أما بعد:

فأرحب بإخواني وأخواتي في هذا المسجد؛ أول مسجد بني في الإسلام، في هـذا المسـجد الـذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، في هذا المسجد الذي صلىٰ فيه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وصـلىٰ فيه الصحابة الأكارم -رضوان الله عليهم-.

أرحب بالجميع في هذا الدرس حيث نشرح كتابًا نافعًا جدًا هو [**كتـاب الكبـائر**] للإمام الذهبي -رحمه الله عزّ وجلَّ-. وفي مجلسنا هذا نشرع في شرح ما يتعلق بالكبيرة الخامسة عشرة، فيتفضل الابن نور الدين -وفقه الله والسامعين- يقرأ لنا.

(المتن)

قال -رحمه الله-: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللسامعين.

قال الحافظ الذهبي -رحمه الله تعالى- الكبيرة الخامسة عشرة: الْكبر وَالْفَخْر وَالْخُيَلَاء وَالْعجب والتيه.

(الشرح)

هذه الكبيرة متعلقة بصفة في الإنسان مذمومة شرعًا وطبعًا، فصاحبها مذموم شرعًا، ولا يحبه الله، وصاحبها مذموم طبعًا ولا يحبه الناس.

وهذه الأمور التي ذكرها الإمام الذهبي -رحمه الله عزَّ وجلَّ- متقاربة المعنى، ويجمعها الكِبر، فكلها فيه كبر.

(الْكبر):

والكِبر في اللغة: العظمة والتجبر.

والكِبر في الشرع: إعجاب المرء بنفسه، واستعظامها حتى يرى نفسه أكبر من الحق ومن الخلق، فيرد الحق ويستخف به، ويحتقر الناس.

فالكبر على شعبتين:

الشعبة الأولى: رد الحق والاستهانة به بعد معرفته، وهذا أقبح الشعبتين؛ إذ فيه الكبر على الله سبحانه وتعالى، والكبر على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم.

والشعبة الثانية: احتقار الناس والترفع عليهم.

والكبر بشعبتيه قليله وكثيره من كبار الذنوب، هذا الكبر.

(وَالْفَخْر)، وأما الفخر فهو: التعاظم والتعالي على الناس بعمل أو نسب أو مال أو غير ذلك.

الفخر أن يتعاظم الإنسان على الناس، ويتباهى عليهم بعلم، رزقه الله علمًا فيفخر بذلك، ويتباهى على الناس، ويتعاظم على الناس.

أو نسب، كان ذا نسب شريف، ذا نسب رفيع، فيتعاظم على الناس، ويتباهى بذلك محتقرًا للناس.

أو مال، يرزقه الله مالًا فيتباهى بذلك، ويتعاظم على الناس، ويحتقر الناس وهو من الكبر.

الفخر من الكبر.

(وَالْخُيَلَاء): أن يرى الإنسان نفسه فوق ما هي عليه، ويري الناس عظمة نفسه بقول أو فعل.

هذه الخيلاء.

الخيلاء تكون في النفس بحيث أن الإنسان يرفع نفسه فوق قدرها، ويرى نفسه أعظم مما هي عليه في الحقيقة، ويحرص على أن يري الناس عظمة نفسه بطريقة كلامه، يتكلم بخيلاء أو بطريقة مشيته، أو نحو ذلك. وهذا -أيضًا- من الكِبر.

(وَالْعجب) له صور:

هو أن يعتقد الإنسان في نفسه فضيلة ليست فيها، أو غرور الإنسان بعمله أو نفسه أو شيء من زينة الدنيا، أو التطاول على من كان دونه فيها أو أن يرى الإنسان عنه من الخير ما ليس عند غيره، أو ينسب الإنسان خيره إلى نفسه لا إلى ربه.

هذه كلها صور العُجب.

أن يرى الإنسان في نفسه فضيلة ليست فيها هذا من العجب، أن يغتر الإنسان بعمله، فإذا عمل عملًا أصابه الغرور، وقال: أنا عملت، وقدمت، وفعلت، وبعض الناس يقول في العمل: عملت ما علي والباقي على الله، يرى أنه ما قصر، ويرى أنه عمِل فيغتر بنفسه.

ولذلك السلف كانوا يقولون: لأن أبيت نائمًا، وأصبح خائفًا أحب إلي من أن أقوم الليل وأصبح معجبًا.

أو أن يتطاول الإنسان على كان دونه، يتطاول عليه ويتعالى عليه هذا من العُجب أيضًا. أو أن يرى الإنسان عنده من الخير ما ليس عند غيره، فيرى أنه متميز، أن عنده من العلم ما فاق به الناس، أنه عنده من المال ما فاق به الناس، فيرى في نفسه أنه أعلى الناس وأكرم الناس، وأرفع الناس، أو أن ينسب خيره إلى نفسه لا إلى ربه، فلا يلحظ المنعم؛ يلحظ النعمة ولا يلحظ المنعم، الله ينعم عليه فينسب ذلك إلى ذكائه، إلى تحسن تصرفه، ولا يلحظ المنعم سبحانه وتعالى، كل هذا من العُجب.

وداعيه -كما ترون-: الكِبر.

وبعض العلماء يقول: العُجب أصل الكبر وفيه كبر.

أي: ما الذي يجعل الإنسان يتكبر؟

العُجب.

والعجب فيه كبر.

(والتيه)، يطلق على الكبر.

وبعض العلماء يقول: أعلى الكبر، صلف وتكبر؛ لأن التيه في أصله ضلال وحيرة، والمتكبر كذلك من شأنه أنه في ضلال وحيرة.

فكل واحد من هذه الأمور فيه كبر، فيجمعها الكبر.

قال ابن حزم -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [**العُجب أصل يتفرع عنه التيه، والزهو، والكبر، والتعالي، وهذه أسماء واقعة علىٰ معانٍ متقاربة**].

وقال ابن القيم -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [**وهذه الخصال فيها من التداخل ما يجعلها مترابطة لاسيما الفخر والخيلاء، فلا يكاد متصف بخصلة منها يسلم من أختها، وكأن هذه الصفات قنوات تنبع من معين واحد، وهو: الكبر، وتخيل عظمة نفسه**].

وكأن هذه الصفات تنبع من معين واحد هو: الكبر، وتخيل الإنسان عظمة نفسه، وهذه الأمور كلها لا شك أنه يجمعها الكبر.

والسلامة من هذه الكبيرة هي: أن ينظر الإنسان دائمًا إلى نقصه، وأن ينظر دائمًا إلى تقصيره، ينظر إلى نقصه وهو أعلم بنفسه، فيه من النقائص ما الله به عليم، قد يرى الناس منه ما يمدح به، لكنه يعلم من نفسه ما فيها من نقص، وما عنده من تقصير، فيلحظ هذا دائمًا، ويكون هذا على ذكره دائمًا، كا ينساه أبدًا، ويعوِّد نفسه على التواضع، يربي نفسه على التواضع، يربي نفسه على التواضع في قوله، في فعله، يعوِّد نفسه على ذلك، **ومن ذلك**:

أن يجالس الفقراء والمساكين والعمال.

أحد السلف من الكبار مر بعمال يأكلون شيئًا، فدعوه، فجلس معهم، وأكل من طعامهم، وجلس كما يجلسون، ثم قال: أجبت دعوتكم، فأجيبوا دعوتي، فدعاهم جميعًا إلى بيته، فأكرمهم، وأطعمهم، وجالسهم.

هكذا يعوِّد الإنسان نفسه على التواضع، ومن عوَّد نفسه على التواضع ووطن نفسه على التواضع يندفع عنه الكبر، وتندفع عنه هذه الأمور.

أيضًا من العلاج: أن لا يرفع الإنسان نفسه فوق منزلتها أبدًا؛ بل يغض منها، وكلما جمحت ردها.

وهذا من أعظم ما يعالج الإنسان به نفسه -أعني هذه الأمور الثلاثة-.

(المتن)

قال -رحمه الله-: قالَ الله تَعَالَىٰ {وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عذت بربي وربكم من كل متكبر لَا يُؤمن بِيَوْم الْحساب}.

(الشرح)

قال موسى -عليه السلام- لما بلغه قول فرعون، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[غافر:٢٦]، قال: إني لجئت لربي سبحانه وتعالى واستجرت به من كل متكبر لا يذعن للحق، هذا متكبر عن الحق، ما آمن، من كل متكبر لا يذعن للحق، ولا يؤمن بيوم الحساب، فيحمله تكبره وعدم إيمانه على كل شر.

فدل ذلك على: أن المتكبر يستعاذ منه بالله سبحانه وتعالى، وعلى أن الكبر أصل كل شر، فما رد رادٌ الحق بعد تبينه إلا من كبر، وما احتقر محتقر الناس إلا من كبر.

فالفساد والشر إنما ينشأ عن الكبر أو الكفر، فالكفر أصل كل شر، والكبر أصل كل شر.

هكذا دلت هذه الآية ؛ ولذلك ذكرها الإمام الذهبي -رحمه الله عزَّ وجلَّ-.

(المتن)

قال -رحمه الله-: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل:٢٣].

(الشرح)

أي أن ربنا سبحانه وتعالى لا يحب المستكبرين عن عبادته وتوحيده، المنحرفين إلى عبادة غيره، الذين لا يدعونه ويدعون غيره سبحانه وتعالى، وكذا كل متكبر في قلبه كبر فإن الله لا يحبه، وكل متكبر يرد الحق أو يحتقر الناس لا يحبه الله سبحانه وتعالى.

(المتن)

قال -رحمه الله-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾[غافر:٥٦].

(الشرح)

أي: ({إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ}) معارضين لها، ({بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}) ، وكل من يعارض آيات الله هو يعارضها بغير سلطان.

أما عند التعارض الصوري بين الأدلة فهذا تعارض في الظاهر، والفقيه والعالم ينظر ويرجح، ويقدم ويؤخر بناءً على الأصول الشرعية.

({إِنْ فِي صُدُورِهِمْ})، أي: ما في صدورهم ({إِلَّا كِبْرٌ}) يتكبرون به على الحق، ويردون الآيات بآرائهم.

وذلك الذي في صدورهم من الكبر والتعاظم ({مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ}) لا في النيا ولا في الآخرة.

هذا التعاظم الذي يرونه في أنفسهم لم يبلغوه، ولن يرفع الله متكبرًا في الدنيا، وفي الآخرة سيأتينا في الحديث كيف يحشرون -نتعوذ بالله من سوء الحال-.

(فَاسْتَعِذْ بِاللهِ)، من فعلهم ومن كبرهم، استعذ بالله من فعلهم وهومعارضة آيات الله بغير سلطان، ومن صفتهم وهي الكبر الذي في الحقيقة هو المانع من الحق.

فالمؤمن يستعيذ بالله من أن يعارض الدليل برأيه، ويستعيذ بالله من الكبر، يستعيذ بالله ائمًا من الكبر، كما أمر الله سبحانه وتعالى.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَعَن النَّبِي صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: «لَا يدْخل الْجنَّة أحد فِي قلبه مِثْقَال ذرة من كبر» رَوَاهُ مُسلم.

(الشرح)

وفي الحديث: «قالَ رجلٌ : إنَّ الرَّجلَ يحبُّ أن يَكونَ ثوبُهُ حسنًا ونعلُهُ حسنةً ؟ فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ».

هذا الحديث العظيم فيه: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قال: («لَا يدْخل الْجنَّة أحد فِي قلبه مِثْقَال)، أي: وزن.

(ذرة):

قال بعض العلماء: الذرة هي النمل الصغير، هناك نوع من النمل لا تكاد تراه وهو يمشي، صغير يسمى: الذر، ولا زال الناس يسمونه الذر إلى اليوم.

وقال بعض العلماء: الذرة هي ذرة الغبار التي لا تُرى بذاتها، وإنما تُرى عند انعكاس الشمس، لو

فتحت النافذة والشمس ظاهرة ترى شيئًا يظهر لك أمام النافذة في النهار، هذه الحبيبات التي لا ترى في الحقيقة إلا بانعكاس الشمس هذه هي الذرة، أي: أنه لا وزن لها إلا شيئًا لا يذكر.

فمن كان في قلبه مثقال ذرة، **أي: وزن ذرة هذه النملة الصغيرة كم تزن؟**

ما تزن شيئًا.

أو هذه الذرة التي تكون في الغبار كم تزن؟

ما تزن شيئًا.

من كان في قلبه وزن هذه الذرة من الكبر متوعد بألا يدخل الجنة.

والكبر ينافي الإيمان الواجب، كل كبر فهو ينافي الإيمان الواجب.

ثم هذا الكبر قد ينافي أصل هذا الإيمان الواجب، بأن يتكبر الإنسان عن الإيمان، ويتكبر عن الإذعان، ويتكبر عن توحيد الله سبحانه وتعالى، فيكون مشركًا وكافرًا، وهذا لن يدخل الجنة أبدًا، ما دام أنه اتصف برد أصل الإيمان والكفران والشرك بالله -عزَّ وجلَّ- فلن يدخل الجنة أبدًا.

وإن كان ينافي الإيمان الواجب فقط دون أصله، فالأصل متحقق؛ لكنه ينافي الإيمان الواجب فيما زاد على ذلك، كل كبر لابد أن ينافي الإيمان الواجب، ولو صدر من أتقى عبد الله، ولن يصدر -إن شاء الله-.

لكن لو صدر من أتقى عباد الله فهو ينافي الإيمان الواجب، فإذا كان ينافي الإيمان الواجب مع بقاء الأصل، فهذا وعيد شديد للمتكبر، ولو وجد في قلبه شيء يسير من الكبر أن الله -عزَّ وجلَّ- إن جزاه، فجزاؤه أن يدخل النار مدة طويلة جدًا كأنه لن يدخل الجنة، أي: كأنه خالد في النار، ولا يخلد في النار مؤمن؛ لكن لطول مكثه ولبثه في النار كأنه لن يدخل الجنة.

طبعًا هذا وعيد إن أراد الله أن يجازيه به، وإلا فهو تحت المشيئة؛ لكن هذا وعيد شديد؛ ولذلك المؤمن لا يغتر بقول العلماء هذا الذنب تحت المشيئة، ما يدريك أن الله يعفو عنك؟! بل إن الجرأة على الذنب قد تمنع العفو، وقد تمنع المغفرة؛ ولذلك هذا وعيد شديد جدًا.

ثم إن الرجل قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «**إِنَّ الرَّجلَ يحبُّ أن يَكونَ ثوبُهُ حسنًا**»، جميلًا، مرتبًا.

«ونعلُهُ حسنةً»، أي: يا رسول الله هل هذا من الكبر.

قال: «إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ»، أي: هذا من من الجمال، والجمال محمود محبوب بدون أن يصحبه كبر، كون الإنسان يهتم بلباسه، يهتم بهيئته وهندامه من غير غلو، ومن غير كبر، هذا جمال، والله جميل يحب الجمال.

ثم عرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم الكبر بأنه بطر الحق، **وبطر الحق يراد به أمران:**

الأمر الأول: رد الحق.

والأمر الثاني: الاستخفاف بالحق، وغمض الناس هو احتقارهم والترفع عليهم، وعدم عدهم شيئًا.

فهذا الحديث دليل على: أن قليل الكبر من الكبائر، فكيف بكثيره؟! إذا كان الذي في قلبه مثقال ذرة من كبر متوعد بدخول النار؛ بل بدخول النار والبقاء فيها زمنًا طويلًا ممتدًا، فكيف بمن في قلبه ما هو أثقل من هذا من كبر؟! كيف بمن امتلئ قلبه -والعياذ بالله- بالكبر، فلا يقبل حقًا، ويترفع عن الحق، ويترفع على الناس، ويحتقر الناس ولا يرى الناس شيئًا -نعوذ بالله من سوء الحال-.

(المتن)

وقال -رحمه الله-: وَقَالَ رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم: «بَيْنَمَا رجل يتبختر فِي بُرديه إِذْ خسف الله بِهِ الأَرْض فَهُوَ يتجلجل فِيهَا إِلَىٰ يَوْم الْقِيَامَة».

(الشرح)

هذا الحديث المتفق عليه يُخبر فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم بأمر قد وقع (**بَيْنَمَا رجل**).

بعض أهل العلم قال: رجل من هذه الأمة كان موجودًا في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم.

وأكثر أهل العلم قالوا: كانوا ممن قبلنا، وهذا الصحيح أنه رجل ممن كانوا قبلنا كما جاء في رواية الإمام أحمد أنه رجل «ممنْ كَان قَبلكم».

والظاهر من قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «ممنْ كَان قَبلكم»، أنه من الأمم الماضية.

نعم الذين قالوا بالقول الأول قالوا المقصود «ممنْ كَان قَبلكم»، أيها المخاطبون أبوهريرة -رضي الله عنه- وعدد من الصحابة تأخر إسلامهم.

لكن الصواب أنه من الأمم الماضية.

(يتبختر فِي بُرديه)، أي: في إزاره وردائه.

وجاء في رواية عند الشيخين: «أعجبتهُ نَفْسَه»، أصابه العجب والكبر، والخيلاء.

(إِذْ خسف الله بِهِ الأَرْض)، "إذا" تدل على سرعة أخذ الله له، فبينما هو متكبر أعجبه برداه، وأعجبته نفسه، وأعجبه شعره أمر الله -عزَّ وجلَّ- الأرض فغارت به، فدخل في باطنها.

(فَهُوَ يتجلجل)، "يتجلجل" أي: يضطرب فيها متحركًا، يصعد ينزل، يصعد ينزل، من شق إلى شق، من شق إلى شق.

(إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة)، إلى أن تقوم الساعة، فهو يعذب في قبره هذا العذاب بسبب كبره.

طبعًا لا يشترط في القبر أن يدفن فيه الإنسان؛ بل كل شيء كان فيه الإنسان بعد موته فهو قبر ولو بطن الحوت.

فهذا قبره، هذه الأرض التي يتجلجل فيها.

ومن هنا أخذ العلماء: أن من أسباب عذاب القبر الكبر، وأن التكبر والتجبر والتعالي من أسباب عذاب القبر -نعوذ بالله من فتنة القبر وعذابه-.

وطبعًا هذا أحد الأدلة على أن الكبر والخيلاء كبيرة من كبائر الذنوب.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام يحْشر الجبارون المتكبرون يَوْم الْقِيَامَة أَمْثَال الذَّر يطؤهم النَّاس.

(الشرح)

روى الترمذي والنسائي أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم **قال:** «يُحشَرُ المتكبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ يغشاهمُ الذُّلُّ من كلِّ مَكانٍ»، وحسنه الترمذي والألباني.

«يُحشَرُ المتكبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ»، **ما هو الذر؟**

النمل الصغير.

«في صُوَرِ الرِّجالِ»، الصورة صورة رجل، والحجم حجم ذرة، كان في الدنيا يتعاظم ويرى نفسه

كبيرة جدًا، فكان جزاؤه أن يحشر يوم القيامة على حجم الذرة في صورة الرجل، في صورته وهو رجل يُحشر في حجم الذرة، وكذا المرأة إذا كانت متكبرة.

«يغشاهمُ الذُّلُّ من كلِّ مَكانٍ»، وهم في هذه الصورة يغشاهم ويغطيهم الذل من كل مكان.

ومن ذلك: أن الناس لا يرونهم، فيطأهم الناس، هذا من الذل.

ورواه أحمد -رحمه الله- بلفظ: «يحشرُ المتكبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ في صورِ النَّاسِ يعلوهم كلُّ شيءٍ من الصَّغارِ».

يحشرون في حجم الذرة في صورة إنسان، يغشاهم ويغطيهم كل أنواع الصغار، وكل أنواع الذل.

ورواه أبو نعيم في الحلية بلفظ: «يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ رِجَالٍ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ».

فالذهبي جمع الروايتين، ما رأيت في الروايات يحشر الجبارون والمتكبرون؛ بل في أكثر الروايات "يحشر المتكبرون" وفي رواية أبو نعيم في الحلية "يحشر الجبارون"، فالذهبي جمع بينهما.

وقول: (يطؤهم النَّاس)، لم أقف على هذه الجملة في شيء من الروايات؛ لكن لا شك أن هذا يدخل في الذل، ويُشعر به الحديث.

(المتن)

وَقَالَ بعض السلف أول ذَنْب عصي الله بِهِ الْكبر.

(الشرح)

(وَقَالَ بعض السلف أول ذَنْب عصي الله بِهِ الْكبر)، ثم تولد من هذا الذنب ذنوب.

واستدلوا بالآية.

(المتن)

قَالَ الله تَعَالَىٰ {وَإِذ قُلْنَا للْمَلَائكَة اسجدوا لآدَم فسجدوا إِلَّا إِبْلِيس أَبىٰ واستكبر وَكَانَ من الْكَافرين}.

(الشرح)

({وَإِذ قُلْنَا للْمَلَائكَة اسجدوا لآدَم فسجدوا إِلَّا إِبْلِيس})، سجد الملائكة كلهم أجمعون لأمر الله -عزَّ وجلَّ-.

({إِلَّا إِبْلِيس أَبىٰ واستكبر})، أبى؛ لأنه استكبر، قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[الأعراف:١٢].

فردَّ الحق، وأمر الله -عزَّ وجلَّ- بالكبر، فكان جزاؤه اللعنة والطرد، والإبعاد من رحمة الله، وأن كان عدو الله.

({وَكَانَ من الْكَافرين })، فكان أول ذنب عرفناه ذنب إبليس لما أمر الله أن يسجد لآدم؛ فأبى.

وسبب هذا الذنب: هو الكبر؛ لأنه استكبر.

({وَكَانَ من الْكَافرين })، وكان رأس الكافرين، وإمام الكافرين، وقائد الكافرين.

فدلَّ ذلك على قبح شأن الكبر، وأن كل الذنوب إنما تولدت عن الكبر؛ لأن الذنوب إنما يدعو إليها إبليس الذي تكبر وتجبر.

(المتن)

قال: فَمن استكبر علىٰ الْحق لم يَنْفَعهُ إيمَانه.

(الشرح)

إن استكبر عن الحق بالكلية أو ردَّ أمر الله وأمر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم بعد علمه به متكبرًا، جاحدًا، يرى نفسه أعلى من هذا، قيل له صلي واسجد، قال: لا، أنا ما أسجد، أنا إذا تسمحون لي أجلس على كرسي أصلي وإلا ما أصلي، هذا كفر، يخرج به من الملة؛ لأنه ردَّ الحق مستحلًا رده.

أما إن كان يرد الحق من جهة العمل، فهذا كبيرة من كبائر الذنوب.

فقول الذهبي: (فَمن استكبر علىٰ الْحق)، كما فعل إبليس، أي: كان استكباره كاستكبار إبليس.

(لم يَنْفَعهُ إيمَانه)، لأن إبليس كان مؤمنًا بالله من جهة معرفته بالله؛ لكنه كان كافرًا؛ لأنه أبى واستكبر.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وعن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قال: «الكبرُ سَفَه الحق وَغمص النَّاس».

(الشرح)

روى الإمام أحمد هذا الحديث بعدة الفاظ:

منها: « الْبَغْيَ مَنْ بَطِرَ -قَالَ: أَوْ قَالَ: سَفِهَ- الْحَقَّ، وَغَمَطَ النَّاسَ»، وصححه محققوا المسند.

ورواه -أيضًا- الإمام أحمد بلفظ: «الكبرُ منْ سَفه الحق وازدرى الناس»، وقال محققوا المسند صحيح لغيره.

ورواه الإمام أحمد -أيضًا- بلفظ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمْصُ النَّاسِ»، وهذه أقرب الروايات لما ذكره الذهبي.

والحديث قد رواه عدد من الصحابة -رضوان الله عليهم-.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: (**الكبرُ سَفَه الحق**)، معناه: أن يرى الحق سفهًا باطلًا بعد علمه به، يعلم الحق ويراه سفهًا باطلًا، يقول ما يصلح أن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة ضياع وقت، نصلي الفجر ونصلي العشاء، هذا يرى الحق سفهًا وباطلًا.

أو أن يرد الحق أو شيئًا منه، فكل من ردَّ الحق بعد تبينه فإنما يرده لكبر، بعض الناس تأتي تنصحه، يقول: أنا لي خمسين سنة وأنا أصلي كذا، الآن أنت تعلمني؟! ما جعله يقول هذا إلا الكبر.

كل من يرد الحق أو بعضه بعد تبينه له؛ لأنه قد يرده جهلًا؛ لكن بعد تبينه له لا يرده إلا لكبر في نفسه، فمن أمارات الكبر رد الحق بعد تبينه.

(**وَغمص النَّاس**)، هو احتقارهم، وعدم احترامهم، وعدم عدهم شيئًا.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وفي لفظ لمسلم: «الكبرُ بَطَرُ الحقِ وَغَمَطَ النَّاسَ».

(الشرح)

هذا الحديث الذي تقدم معنا، وهذا تعريف للكبر، وعلامة على المتكبرين.

تعريف الكبر في الشرع هو: بطر الحق وغمط الناس.

هذا تعريف الكبر، جامع مانع.

وعلامة المتكبر: أن لا يذعن للحق، وقد تبين له؛ بل يرده أو يرد بعضه، أو أن يحتقر الناس، يقول: من هؤلاء الناس حتى يجلسون معي؟! من هؤلاء حتى أجالسهم، هؤلاء فقراء، هؤلاء مساكين، هؤلاء عمال، مقامتنا أكبر من تدعونا وتجلسنا معهم، هذه علامة كبر، علامة على أنه متكبر.

إذًا هذا الحديث فيه أمران عظيمان: تعريف الكبر شرعًا، وبيان علامة المتكبر.

فعلامة المتكبر تظهر في رده للحق أو بعضه، أو في احتقاره للناس والتعالي على الناس.

لعلنا نقف عند هذه النقطة ونكمل في الدرس القادم -إن شاء الله-.

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يفقهنا في دينه، وأن يجعلنا خيرًا على أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، ونعوذ بالله أن نكون من الأقوام الذين يقولون ما لا يفعلون. نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يذكينا بالعلم، وأن ينفعنا بالعلم، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا.

والله -تعالى- أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا وسلم.